

## تعريف المنهج لغة واصطلاحاً:

لغة: من "نهج ينهج نهجاً، وهو الطريق البين الواضح، وهو المنهج والمنهاج، ويطلق على الطريق المستقيم، ومنه قوله - تعالى - ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ونهجت الطريق: بينته، وانتهجته: استتبنته، ونهج الطريق وأنهج: وضع).  
اصطلاحاً: هو "خطوات مُنظمة يتخذها الباحث؛ لمعالجة مسألة أو أكثر، للوصول إلى نتيجة)

## تعريف علم الكلام لغة واصطلاحاً.

الكلام لغة: قال ابن فارس: "الكاف واللام والميم أصلان: أحدهما يدل على نطق مفهم، والآخر على جراح، فالأول الكلام، تقول: كلمته أكلمه تكليماً وهو كليي إذا كلمك أو كلمته، ثم يتسعون فيسمون اللفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة ويجمعون الكلمة كلمات وكلماً، والأصل الآخر الكلّم، وهو الجرح والكلام الجراحات، وجمع الكلم كلوم ايضاً، ورجل كليم وقوم كليى، أي جرحى".  
علم الكلام اصطلاحاً: هو "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد فإن الخصم وإن خطأنه لا نخرجه من علماء الكلام".

موضوعه عند الأقدمين: ذات الله تعالى وصفاته لأن المقصود الأصلي من علم الكلام معرفته تعالى وصفاته ولما احتاجت مبادئه إلى معرفة أحوال المحدثات أدرج المتأخرون تلك المباحث في علم الكلام لئلا يحتاج أعلى العلوم الشرعية إلى العلوم الحكمية فجعلوا موضوعه الموجود من حيث هو موجود وميزوه عن الحكمة بكون البحث فيه على قانون الإسلام وفي الحكمة على مقتضى العقول، ولما رأى المتأخرون احتياجه إلى معرفة أحوال الأدلة وأحكام الأقيسة وتحاشوا عن أن يحتاج أعلى العلوم الشرعية إلى علم المنطق جعلوا موضوعه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً

قريباً أو بعيداً، ثم إن علم الكلام شرطوا فيه أن تؤخذ العقيدة أولاً من الكتاب والسنة ثم تثبت بالبراهين العقلية.

### الفلسفة لغة واصطلاحاً.

الفلسفة لغة: الفلسفة من الناحية اللغوية "مركبة من كلمتين يونانيتين (فيلو سوفيا) وتعني: (محبة الحكمة) فلما عُرِّبَت قيل: فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه".  
ثانياً تعريف الفلسفة اصطلاحاً: إن المعنى الاصطلاحي للفلسفة مر بعدة أدوار، ومازال حتى عصرنا هذا غير ثابت على المعنى العام له، ولذلك يصعب تحديد مفهوم الفلسفة بصفة عامة، ولكن أقرب تعريف للفلسفة من منهجية الدراسة هي " البحث عن الحقيقة " ويعتبر هذا التعريف هو القاسم المشترك في جميع أدوار الفلاسفة، لأن الدافع عن البحث عادة يدفع الباحث إلى معرفة نفسه، ومعرفة ما حوله من الوجود، والتفاعل مع القضايا تبريراً وتغييراً وذلك من غاية الحكمة.

### اهداف دراسة مادة مناهج المتكلمين:

- 1- معرفة اصول الدين معرفة علمية قائمة على اساس الدليل والبرهان.
- 2- القدرة على ارساء القاعدة الاساسية التي يقوم عليها الدين بالحجة والادلة.
- 3- القدرة على ابطال الشبهات التي يثيرها المبطلون في العقيدة الاسلامية.
- 4- حفظ العقيدة كي لا يتطرق اليها المبطلين، من ذلك معرفة الله عز وجل وصفاته.
- 5- معرفة ان علم الكلام الذي يقصد به علم التوحيد هو مرجع جميع العلوم من التفسير والحديث والفقه.

### الغاية من دراسة مناهج المتكلمين.

هو معرفة ذات الله وصفاته وافعاله، وتقوية اليقين بالدين الاسلامي عن طريق اثبات العقائد الدينية بالبراهين القطعية، واخيراً الارتقاء بالمسلم من التقليد الى اليقين.

### \*\*\* الملا صدرا والحكمة المتعالية\*\*\*

تمهيد:

يُمكن القول إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، ولا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها في القرن الحادي عشر الهجريّ صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّهيّن أو بالملا صدرا. ولا يُمكن دراسة هذه الفلسفة من دون إطلالةٍ على الحياة العلميّة لهذا الفيلسوف.

أولاً: المراحل العلميّة لحياة صدر المتألّهيّن ومدرسته:

ولد في شيراز دون أن تُحدّد بالدقّة سنة ولادته، من والدٍ صالحٍ اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وقيل إنّّه كان أحد وزراء دولة فارس. وكان هو الولد الوحيد حيث حظي باهتمامٍ كبيرٍ عند والده، الذي وجّهه لطلب العلم، فبدأ دراسته في شيراز عاصمة الدولة آنذاك. وانتقل بعد وفاة والده إلى أصفهان، وأنفق كلّ ماله الذي ورثه في تحصيل العلم، فتتلمذ على يد الشيخ بهاء الدين العامليّ (953 - 1031 هـ)، الذي وجّهه بعد فترةٍ إلى فيلسوف عصره السيّد محمّد باقر الداماد (المتوفّى سنة 1040 هـ). ويُمكن تقسيم حياته العلميّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: التلمذة:

حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم، ولم يكن في هذه المرحلة قد نضج من الناحية الفلسفيّة، ولم يفتح له المسلك العرفانيّ. وفي هذه الفترة "استوعب في هذا المجال من حكماء اليونان خصوصاً أفلاطون وأرسطو، وما أبانته دراسات كبار حكماء الإسلام كالفارابيّ وابن سينا وشيخ الإشراق وغيرهم، وما ابتكره هؤلاء، كما هضم ما وصل إليه كبار العرفاء عن طريق الذوق والوجدان".

لكن مع ذلك كلّهُ يُعبّر هو عن هذه المرحلة بقوله: "وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتى ظننتُ أنّي على شيءٍ، فلمّا انفتحت بصيرتي ونظرتُ إلى حالي رأيتُ نفسي... فارغةً من العلوم الحقيقيّة وحقائق العيان، ممّا لا يُدرك إلّا بالذوق والوجدان".

المرحلة الثانية: العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى كهك، وهي إحدى قرى قم، خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال. فهو يقول بعد أن يذكر في مقدّمة كتابه الأسفار أحوال أهل ذلك الزمان، ومعاداتهم له: "فأمسكتُ عناني عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وآيستُ من مرافقتهم، ومؤانستهم، وسهلت عليّ معاداة الدوران، ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، فتوجّهتُ توجّهاً عزيزاً نحو مسبب الأسباب، وتضرّعت تضرّعاً جبليّاً إلى مسهل الأمور الصعاب، فلمّا بقيتُ على هذا الحال من الاستتار والانزواء... زماناً مديداً وأمدّاً بعيداً، اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاّباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقّتها الأضواء الأحديّة...". وبذلك يكون قد انتقل إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: التأليف: يقول "فألهمني الله الإفاضة ممّا شربنا جرعةً للعطاش الطالبين، والإلاحة<sup>1</sup> ممّا وجدنا لعمه للقلوب السالكين، ليحيا من شرب منه جرعةً، ويتنوّر قلب من وجد منه لعمه، فبلغ الكتاب أجله، وأراد الله تقديمه وقد كان أجله، فأظهره في الوقت الذي قدره، وأبرزه على من له يسره، فرأيتُ إخراجَه من القوّة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعملتُ فيه فكري، وجمعتُ على ضمّ شوارده أمري، وسألتُ الله تعالى أن يشدّ أزري، ويحطّ بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صدري، فنهضتُ عزيّمي بعد ما كانت قاعدةً، وهبّت همّتي غبّ ما كانت راكدةً، واهتزّ الخامد من نشاطي...". فصنّف كتاباً إلهياً - الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة - وبدأ في مرحلته هذه بالتأليف والكتابة.

ثالثاً: أهمّ مؤلّفات صدر المتألّمين بعد كتاب الأسفار:

1- تفسير القرآن الكريم.

2- شرح على أصول الكافي.

<sup>1</sup> الاح: بدا وظهر وبسيفه وبثوبه، ولوّح به لمع به.

- 3- مفاتيح الغيب.
  - 4- المبدأ والمعاد.
  - 5- رسالة في حدوث العالم.
  - 6- كتاب المشاعر.
  - 7- الشواهد الربوبية.
  - 8- العرشية.
  - 9- رسالة التصوّر والتصديق.
- وقد طُبِعَ أكثر مؤلفاته التي يبلغ عددها 32 كتاباً ورسالة تقريباً.

#### رابعاً: ميّزات هذه المدرسة:

إنّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجٌ مختلفٌ عن كلّ المدارس السابقة عليه، فهو ليس منهجاً مشائياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفيّاً، ولا كلامياً، "وليست فلسفةً تجميعيّةً، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص" فهي بحقّ مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس. وبملاحظة حياة صدر المتألّفين بمراحلها الثلاث، يُمكن استنتاج ركائز الفلسفة النيّ شيّدها، والأسُس التي اعتمد عليها. فهو فيلسوف إسلاميّ قرأ كلّ ما تقدّم عليه من أفكارٍ وفلسفاتٍ، وطاقته نفسه لحياة العزلة والتصوّف، لكنّه خرج من عزلته منتصراً، يحمل فلسفةً جديدةً، لم يكن ليوفّق إليها من قبله، فكانت فلسفته مزيجاً من البرهان والوجدان والقرآن، أو قلّ مزيجاً من العقل والكشف والشرع.

#### 1- الجمع بين البرهان والوجدان:

أولاً: إنّ الحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، فنجد صدرا يُشَنِّع على من ينكر العلم اللّديّ، بينما هو يعتبره أقوى وأشدّ فيقول: "إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبيّ اللّديّ، الذي يعتمد عليه السّلاك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين ما معنى العلم إلّا الذي يحصل من تعلّم أو فكر وروية".

ويذمّ المعتمدين على البحث والعقل فقط فيقول: "...لا على مجرد الأنظار البحثية، التي سيلعب بالمعوليين عليها والمعتمدين بها الشكوك، يلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها ويتوافقوا فيها، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها".

فأولى "أن يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء، والمليين من العرفاء".

يمكن القول: "إنّ فلسفة صدر المتألهين تُشبه المدرسة الإشراقية من ناحية الأسلوب، أي إنّها تعتمد كلاً من الاستدلال والمكاشفة، إلّا أنّها تختلف عنها في الأسس والاستنتاجات".

ثانياً: يقدم البحث الفلسفيّ على الشهود الوجدانيّ، شفقةً بالمتعلّمين، وتسهيلاً عليهم، لأنّ الطالب قد لا يقتنع بالمشاهدة ولا يُصدّق بها ابتداءً، لكنّه إذا وجد الدليل البحثيّ العقليّ واقتنع به، ثمّ سمع بالمشاهدة والكشف أمكنه التصديق أكثر: "ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكننا أولاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثمّ نفرق عنهم في الغايات، لنلّا تنبؤ الطبائع عمّا نحن بصده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم".

## 2- المطابقة بين الشرع والعقل:

وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج، فلم يقع فيما وقع به المشاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل، ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقلية بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفية الحكمية التي طرحها مطابقة بين العقل والشرع: "وحاشا الشريعة الحقّة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب

والسنة"<sup>2</sup>. وعلى هذا لا يزال يستشهد على كل مسألة فلسفية عويصة بالآيات القرآنية والآثار الإسلامية. وهو بارع في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته. ولم يكن استشهاده بها لرفع شبهة المتهمين له بالخروج عن الدين، بل هو من الذين يدعون أنه لا أحد يفهم أسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة كما يفهمها هو. و يسعى في كل ما ألفه إلى أن يُبين هذا المنهج الفريد، فيهدف من كتبه الفلسفية إلى بيان تأييد العقل للدين، ومن كتبه الدينية بيان تأييد الدين للعقل، فكانت كتبه كلها دينية فلسفية.

### 3- محورية القرآن:

وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الفريد الذي يتبعه الملاء صدرًا، أن البرهان والعرفان والقرآن في عرض واحد، وأنها طرق ثلاث توصل إلى الحقيقة وتكشف عنها، وأنه لا تقدم لبعضها على الآخر، إلا بالأسلوب التأليفي والكتابي لإقناع الطلاب، ولكن الصحيح أن المحورية الأساس للقرآن في مدرسته: "إن الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلة، البرهان والعرفان والقرآن، وأنه لا يوجد أي اختلاف بينها، وإنما هي توافق وانسجام تام، نعم في مقام المقايسة الداخلية بين هذه الطرق الثلاث، فإن المحورية والأصالة هي للقرآن، والآخران يدوران حوله، لا ينفكان عنه".

### خامساً: حدود العقل:

ومن الضروري جداً وضوح مكانة العقل في هذه المدرسة. فقد يتصور أن الحقائق، التي كشفت الحكمة المتعالية اللثام عنها، يتوصل إليها بالطرق الثلاث المتقدمة، وأن ما يصل إليه الكشف والشهود، وما يحكي ويخبر عنه القرآن والسنة، يمكن للعقل والبرهان أن يصل إليه، ويستدل عليه. وقد يتصور أنه يوجد تناف بين القرآن والوجدان من جهة، والبرهان من جهة ثانية، حيث إن هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقع فيما بينها.

لكن الحقّ غير هذا، فإنّ هذه الطرق ليست في عرض بعضها البعض حتّى يقع التنافي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان، يقول صدر المتألّهيّن: "ثمّ إنّ بعض أسرار الدّين وأطوار الشرع المبين بلغ إلى حدّ ما هو خارجٌ عن طور العقل الفكريّ، وإنّما يُعرف بطور الولاية والنبوّة، ونسبة طور العقل ونوره إلى طور الولاية ونورها، كنسبة نور الحسن إلى نور الفكر، فليس لميزان الفكر كثير فائدةٍ وتصرفٍ هناك".

وقال أيضاً: "إنّ مقتضى البرهان الصحيح ممّا ليس إنكاره في جِبَلّة العقل السليم من الأمراض والأسقام الباطنة. نعم ربما يكون بعض المراتب الكماليّة ممّا يقصر عن غورها العقول السليمة، لغاية شرفها وعلوّها عن إدراك العقول، لاستيطانها في هذه الدار وعدم مهاجرتها إلى عالم الأسرار، لا أنّ شيئاً من المطالب الحقّة ممّا يقدر فيها ويحكم بفسادها العقل السليم والذهن المستقيم".

وينقل عن الغزالي فيقول: "قال الشيخ الفاضل الغزالي: اعلم أنّه لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالاته. نعم يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنّه لا يدرك بمجرد العقل. ومن لم يُفرّق بين ما يُحيله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخسّ من أن يُخاطب فيترك وجهله".

سادساً: تقويم هذه المدرسة:

لقد استطاع "صدر المتألهين أن يجمع بين الفلسفة والعرفان، واستفاد في ذلك بالسنة والقرآن، وبين المعارف الذوقية في صورة الدليل والبرهان، فتولّد بهذا الترتيب بين مناهج المعرفة منهجٌ حديثٌ، وسُمّي بالحكمة المتعالية" و"استطاع أن يُحقّق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفية، أدّت إلى بناء نظامٍ عقليٍّ جديدٍ قائمٍ على أسسٍ برهانيةٍ يُمكنها تفسير العالم الإمكانى وعلاقته بمبدئه المتعالي"

وقد حَسَمت هذه المدرسة النزاع بين الفلسفة المشائية والإشراقية، ولم يعد معنى للصراع بين أرسطو وأفلاطون في هذه المدرسة، حيث وضعت كلّ مسألةٍ في مكانها، واستفادت من المناهج المعرفية كلّها.

سابعاً: المفاهيم الرئيسة:

1- إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، لا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّمين.

2- يُمكن تقسيم حياة صدر المتألّمين العلميّة إلى ثلاث مراحل:

أ- التلمذة: حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم.

ب- العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى إحدى قرى قم المقدّسة خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال.

ج- التألّيف: حيث صنّف في هذه المرحلة الجديدة من حياته أنفس ما قدّمه للفلسفة الإسلاميّة.

3- يُعدّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجاً مختلفاً عن كلّ المدارس السابقة عليه. فهو ليس منهجاً مشأئياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً، بل هي مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس.

4- قد تميّزت هذه المدرسة عن غيرها من المدارس بأنّها:

أ- تجمع بين البرهان والوجدان: فالحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، لكن لا بنحو الفلسفة المشأئية تنكر على الشهود كلّ النكير، ولا كالصوفيّة يعترضون ويسقّهون العقل أيّ تسفيهه، بل هي تُحارب من يعتمد على الشهود والكشف فقط، كما وتندّم من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

ب- تطابق بين الشرع والعقل: وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج. فنلاحظ في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع. ولهذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألة فلسفيّة عويصة بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة.



### \*\*\* الملا صدرا والحكمة المتعالية\*\*\*

تمهيد:

يُمكن القول إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، ولا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها في القرن الحادي عشر الهجريّ صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّهيّن أو بالملا صدرا. ولا يُمكن دراسة هذه الفلسفة من دون إطلالةٍ على الحياة العلميّة لهذا الفيلسوف.

أولاً: المراحل العلميّة لحياة صدر المتألّهيّن ومدرسته:

ولد في شيراز دون أن تُحدّد بالدقّة سنة ولادته، من والدٍ صالحٍ اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وقيل إنّّه كان أحد وزراء دولة فارس. وكان هو الولد الوحيد حيث حظي باهتمامٍ كبيرٍ عند والده، الذي وجّهه لطلب العلم، فبدأ دراسته في شيراز عاصمة الدولة آنذاك. وانتقل بعد وفاة والده إلى أصفهان، وأنفق كلّ ماله الذي ورثه في تحصيل العلم، فتتلمذ على يد الشيخ بهاء الدين العامليّ (953 - 1031 هـ)، الذي وجّهه بعد فترةٍ إلى فيلسوف عصره السيّد محمّد باقر الداماد (المتوفّى سنة 1040 هـ). ويُمكن تقسيم حياته العلميّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: التلمذة:

حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم، ولم يكن في هذه المرحلة قد نضج من الناحية الفلسفيّة، ولم يفتح له المسلك العرفانيّ. وفي هذه الفترة "استوعب في هذا المجال من حكماء اليونان خصوصاً أفلاطون وأرسطو، وما أبانته دراسات كبار حكماء الإسلام كالفارابيّ وابن سينا وشيخ الإشراق وغيرهم، وما ابتكره هؤلاء، كما هضم ما وصل إليه كبار العرفاء عن طريق الذوق والوجدان".

لكن مع ذلك كلّهُ يُعبّر هو عن هذه المرحلة بقوله: "وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتى ظننتُ أنّي على شيءٍ، فلمّا انفتحت بصيرتي ونظرتُ إلى حالي رأيتُ نفسي... فارغةً من العلوم الحقيقيّة وحقائق العيان، ممّا لا يُدرك إلّا بالذوق والوجدان".

المرحلة الثانية: العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى كهك، وهي إحدى قرى قم، خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال. فهو يقول بعد أن يذكر في مقدّمة كتابه الأسفار أحوال أهل ذلك الزمان، ومعاداتهم له: "فأمسكتُ عناني عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وآيستُ من مرافقتهم، ومؤانستهم، وسهلت عليّ معاداة الدوران، ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، فتوجّهتُ توجّهاً عزيزاً نحو مسبب الأسباب، وتضرّعت تضرّعاً جبليّاً إلى مسهل الأمور الصعاب، فلمّا بقيتُ على هذا الحال من الاستتار والانزواء... زماناً مديداً وأمدّاً بعيداً، اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاّباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقّتها الأضواء الأحديّة...". وبذلك يكون قد انتقل إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: التأليف: يقول "فألهمني الله الإفاضة ممّا شربنا جرعةً للعطاش الطالبين، والإلاحة<sup>1</sup> ممّا وجدنا لعمه للقلوب السالكين، ليحيا من شرب منه جرعةً، ويتنوّر قلب من وجد منه لعمه، فبلغ الكتاب أجله، وأراد الله تقديمه وقد كان أجله، فأظهره في الوقت الذي قدره، وأبرزه على من له يسره، فرأيتُ إخراجَه من القوّة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعملتُ فيه فكري، وجمعتُ على ضمّ شوارده أمري، وسألتُ الله تعالى أن يشدّ أزري، ويحطّ بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صدري، فنهضتُ عزيّمتي بعد ما كانت قاعدةً، وهبّت همّتي غبّ ما كانت راكدةً، واهتزّ الخامد من نشاطي...". فصنّف كتاباً إلهياً - الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة - وبدأ في مرحلته هذه بالتأليف والكتابة.

ثالثاً: أهمّ مؤلّفات صدر المتألّمين بعد كتاب الأسفار:

1- تفسير القرآن الكريم.

2- شرح على أصول الكافي.

<sup>1</sup> الاح: بدا وظهر وبسيفه وبثوبه، ولوّح به لمع به.

- 3- مفاتيح الغيب.
  - 4- المبدأ والمعاد.
  - 5- رسالة في حدوث العالم.
  - 6- كتاب المشاعر.
  - 7- الشواهد الربوبية.
  - 8- العرشية.
  - 9- رسالة التصوّر والتصديق.
- وقد طُبِعَ أكثر مؤلفاته التي يبلغ عددها 32 كتاباً ورسالة تقريباً.

#### رابعاً: ميّزات هذه المدرسة:

إنّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجٌ مختلفٌ عن كلّ المدارس السابقة عليه، فهو ليس منهجاً مشائياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفياً، ولا كلامياً، "وليست فلسفةً تجميعيّةً، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص" فهي بحقّ مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس. وبملاحظة حياة صدر المتألّهيّن بمراحلها الثلاث، يُمكن استنتاج ركائز الفلسفة النيّ شيّدها، والأسُس التي اعتمد عليها. فهو فيلسوف إسلاميّ قرأ كلّ ما تقدّم عليه من أفكارٍ وفلسفاتٍ، وطاقته نفسه لحياة العزلة والتصوّف، لكنّه خرج من عزلته منتصراً، يحمل فلسفةً جديدةً، لم يكن ليوفّق إليها من قبله، فكانت فلسفته مزيجاً من البرهان والوجدان والقرآن، أو قلّ مزيجاً من العقل والكشف والشرع.

#### 1- الجمع بين البرهان والوجدان:

أولاً: إنّ الحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، فنجد صدراً يُشَنّع على من ينكر العلم اللّديّ، بينما هو يعتبره أقوى وأشدّ فيقول: "إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبيّ اللّديّ، الذي يعتمد عليه السّلاّك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين ما معنى العلم إلّا الذي يحصل من تعلّم أو فكر ورويّة".

ويذمّ المعتمدين على البحث والعقل فقط فيقول: "...لا على مجرد الأنظار البحثية، التي سيلعب بالمعوليين عليها والمعتمدين بها الشكوك، يلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها ويتوافقوا فيها، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها".

فأولى "أن يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء، والمليين من العرفاء".

يمكن القول: "إنّ فلسفة صدر المتألهين تُشبه المدرسة الإشراقية من ناحية الأسلوب، أي إنّها تعتمد كلاً من الاستدلال والمكاشفة، إلّا أنّها تختلف عنها في الأسس والاستنتاجات".

ثانياً: يقدم البحث الفلسفيّ على الشهود الوجدانيّ، شفقةً بالمتعلّمين، وتسهيلاً عليهم، لأنّ الطالب قد لا يقتنع بالمشاهدة ولا يُصدّق بها ابتداءً، لكنّه إذا وجد الدليل البحثيّ العقليّ واقتنع به، ثمّ سمع بالمشاهدة والكشف أمكنه التصديق أكثر: "ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكننا أولاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثمّ نفرق عنهم في الغايات، لنلّا تنبؤ الطبائع عمّا نحن بصده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم".

## 2- المطابقة بين الشرع والعقل:

وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج، فلم يقع فيما وقع به المشاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل، ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقلية بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفية الحكمية التي طرحها مطابقة بين العقل والشرع: "وحاشا الشريعة الحقّة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب

والسنة"<sup>2</sup>. وعلى هذا لا يزال يستشهد على كل مسألة فلسفية عويصة بالآيات القرآنية والآثار الإسلامية. وهو بارع في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته. ولم يكن استشهاده بها لرفع شبهة المتهمين له بالخروج عن الدين، بل هو من الذين يدعون أنه لا أحد يفهم أسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة كما يفهمها هو. و يسعى في كل ما ألفه إلى أن يُبين هذا المنهج الفريد، فيهدف من كتبه الفلسفية إلى بيان تأييد العقل للدين، ومن كتبه الدينية بيان تأييد الدين للعقل، فكانت كتبه كلها دينية فلسفية.

### 3- محورية القرآن:

وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الفريد الذي يتبعه الملاء صدرًا، أن البرهان والعرفان والقرآن في عرض واحد، وأنها طرق ثلاث توصل إلى الحقيقة وتكشف عنها، وأنه لا تقدم لبعضها على الآخر، إلا بالأسلوب التأليفي والكتابي لإقناع الطلاب، ولكن الصحيح أن المحورية الأساس للقرآن في مدرسته: "إن الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلة، البرهان والعرفان والقرآن، وأنه لا يوجد أي اختلاف بينها، وإنما هي توافق وانسجام تام، نعم في مقام المقايسة الداخلية بين هذه الطرق الثلاث، فإن المحورية والأصالة هي للقرآن، والآخران يدوران حوله، لا ينفكان عنه".

### خامساً: حدود العقل:

ومن الضروري جداً وضوح مكانة العقل في هذه المدرسة. فقد يتصور أن الحقائق، التي كشفت الحكمة المتعالية اللثام عنها، يتوصل إليها بالطرق الثلاث المتقدمة، وأن ما يصل إليه الكشف والشهود، وما يحكي ويخبر عنه القرآن والسنة، يمكن للعقل والبرهان أن يصل إليه، ويستدل عليه. وقد يتصور أنه يوجد تناف بين القرآن والوجدان من جهة، والبرهان من جهة ثانية، حيث إن هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقع فيما بينها.

لكن الحقّ غير هذا، فإنّ هذه الطرق ليست في عرض بعضها البعض حتّى يقع التنافي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان، يقول صدر المتألّهيّن: "ثمّ إنّ بعض أسرار الدّين وأطوار الشرع المبين بلغ إلى حدّ ما هو خارجٌ عن طور العقل الفكريّ، وإنّما يُعرف بطور الولاية والنبوّة، ونسبة طور العقل ونوره إلى طور الولاية ونورها، كنسبة نور الحسن إلى نور الفكر، فليس لميزان الفكر كثير فائدةٍ وتصرفٍ هناك".

وقال أيضاً: "إنّ مقتضى البرهان الصحيح ممّا ليس إنكاره في جِبَلّة العقل السليم من الأمراض والأسقام الباطنة. نعم ربما يكون بعض المراتب الكماليّة ممّا يقصر عن غورها العقول السليمة، لغاية شرفها وعلوّها عن إدراك العقول، لاستيطانها في هذه الدار وعدم مهاجرتها إلى عالم الأسرار، لا أنّ شيئاً من المطالب الحقّة ممّا يقدر فيها ويحكم بفسادها العقل السليم والذهن المستقيم".

وينقل عن الغزالي فيقول: "قال الشيخ الفاضل الغزالي: اعلم أنّه لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالاته. نعم يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنّه لا يدرك بمجرد العقل. ومن لم يُفرّق بين ما يُحيله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخسّ من أن يُخاطب فيترك وجهله".

سادساً: تقويم هذه المدرسة:

لقد استطاع "صدر المتألهين أن يجمع بين الفلسفة والعرفان، واستفاد في ذلك بالسنة والقرآن، وبين المعارف الذوقية في صورة الدليل والبرهان، فتولّد بهذا الترتيب بين مناهج المعرفة منهجٌ حديثٌ، وسُمّي بالحكمة المتعالية" و"استطاع أن يُحقّق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفية، أدّت إلى بناء نظامٍ عقليٍّ جديدٍ قائمٍ على أسسٍ برهانيةٍ يُمكنها تفسير العالم الإمكانى وعلاقته بمبدئه المتعالي"

وقد حَسَمت هذه المدرسة النزاع بين الفلسفة المشائية والإشراقية، ولم يعد معنى للصراع بين أرسطو وأفلاطون في هذه المدرسة، حيث وضعت كلّ مسألةٍ في مكانها، واستفادت من المناهج المعرفية كلّها.

سابعاً: المفاهيم الرئيسة:

1- إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، لا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّمين.

2- يُمكن تقسيم حياة صدر المتألّمين العلميّة إلى ثلاث مراحل:

أ- التلمذة: حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم.

ب- العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى إحدى قرى قم المقدّسة خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال.

ج- التألّيف: حيث صنّف في هذه المرحلة الجديدة من حياته أنفس ما قدّمه للفلسفة الإسلاميّة.

3- يُعدّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجاً مختلفاً عن كلّ المدارس السابقة عليه. فهو ليس منهجاً مشأئياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً، بل هي مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس.

4- قد تميّزت هذه المدرسة عن غيرها من المدارس بأنّها:

أ- تجمع بين البرهان والوجدان: فالحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، لكن لا بنحو الفلسفة المشأئية تنكر على الشهود كلّ النكير، ولا كالصوفيّة يعترضون ويسقّهون العقل أيّ تسفيهه، بل هي تُحارب من يعتمد على الشهود والكشف فقط، كما وتندّم من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

ب- تطابق بين الشرع والعقل: وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج. فنلاحظ في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع. ولهذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألة فلسفيّة عويصة بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة.



### \*\*\* الملا صدرا والحكمة المتعالية\*\*\*

تمهيد:

يُمكن القول إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، ولا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها في القرن الحادي عشر الهجريّ صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّهيّن أو بالملا صدرا. ولا يُمكن دراسة هذه الفلسفة من دون إطلالةٍ على الحياة العلميّة لهذا الفيلسوف.

أولاً: المراحل العلميّة لحياة صدر المتألّهيّن ومدرسته:

ولد في شيراز دون أن تُحدّد بالدقّة سنة ولادته، من والدٍ صالحٍ اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وقيل إنّّه كان أحد وزراء دولة فارس. وكان هو الولد الوحيد حيث حظي باهتمامٍ كبيرٍ عند والده، الذي وجّهه لطلب العلم، فبدأ دراسته في شيراز عاصمة الدولة آنذاك. وانتقل بعد وفاة والده إلى أصفهان، وأنفق كلّ ماله الذي ورثه في تحصيل العلم، فتتلمذ على يد الشيخ بهاء الدين العامليّ (953 - 1031 هـ)، الذي وجّهه بعد فترةٍ إلى فيلسوف عصره السيّد محمّد باقر الداماد (المتوفّى سنة 1040 هـ). ويُمكن تقسيم حياته العلميّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: التلمذة:

حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم، ولم يكن في هذه المرحلة قد نضج من الناحية الفلسفيّة، ولم يفتح له المسلك العرفانيّ. وفي هذه الفترة "استوعب في هذا المجال من حكماء اليونان خصوصاً أفلاطون وأرسطو، وما أبانته دراسات كبار حكماء الإسلام كالفارابيّ وابن سينا وشيخ الإشراق وغيرهم، وما ابتكره هؤلاء، كما هضم ما وصل إليه كبار العرفاء عن طريق الذوق والوجدان".

لكن مع ذلك كلّهُ يُعبّر هو عن هذه المرحلة بقوله: "وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتى ظننتُ أنّي على شيءٍ، فلمّا انفتحت بصيرتي ونظرتُ إلى حالي رأيتُ نفسي... فارغةً من العلوم الحقيقيّة وحقائق العيان، ممّا لا يُدرك إلّا بالذوق والوجدان".

المرحلة الثانية: العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى كهك، وهي إحدى قرى قم، خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال. فهو يقول بعد أن يذكر في مقدّمة كتابه الأسفار أحوال أهل ذلك الزمان، ومعاداتهم له: "فأمسكتُ عناني عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وآيستُ من مرافقتهم، ومؤانستهم، وسهلت عليّ معاداة الدوران، ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، فتوجّهتُ توجّهاً عزيزاً نحو مسبب الأسباب، وتضرّعت تضرّعا جبليّاً إلى مسهل الأمور الصعاب، فلمّا بقيتُ على هذا الحال من الاستتار والانزواء... زماناً مديداً وأمدّاً بعيداً، اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاّباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقّتها الأضواء الأحديّة...". وبذلك يكون قد انتقل إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: التأليف: يقول "فألهمني الله الإفاضة ممّا شربنا جرعةً للعطاش الطالبين، والإلاحة<sup>1</sup> ممّا وجدنا لعمه للقلوب السالكين، ليحيا من شرب منه جرعةً، ويتنوّر قلب من وجد منه لعمه، فبلغ الكتاب أجله، وأراد الله تقديمه وقد كان أجله، فأظهره في الوقت الذي قدره، وأبرزه على من له يسره، فرأيتُ إخراجَه من القوّة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعملتُ فيه فكري، وجمعتُ على ضمّ شوارده أمري، وسألتُ الله تعالى أن يشدّ أزري، ويحطّ بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صدري، فنهضتُ عزيّمي بعد ما كانت قاعدةً، وهبّت همّتي غبّ ما كانت راكدةً، واهتزّ الخامد من نشاطي..."، فصنّف كتاباً إلهياً - الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة - وبدأ في مرحلته هذه بالتأليف والكتابة.

ثالثاً: أهمّ مؤلّفات صدر المتألّمين بعد كتاب الأسفار:

1- تفسير القرآن الكريم.

2- شرح على أصول الكافي.

<sup>1</sup> الاح: بدا وظهر وبسيفه وبثوبه، ولوّح به لمع به.

- 3- مفاتيح الغيب.
  - 4- المبدأ والمعاد.
  - 5- رسالة في حدوث العالم.
  - 6- كتاب المشاعر.
  - 7- الشواهد الربوبية.
  - 8- العرشية.
  - 9- رسالة التصوّر والتصديق.
- وقد طُبِعَ أكثر مؤلفاته التي يبلغ عددها 32 كتاباً ورسالة تقريباً.

#### رابعاً: ميّزات هذه المدرسة:

إنّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجٌ مختلفٌ عن كلّ المدارس السابقة عليه، فهو ليس منهجاً مشائياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفياً، ولا كلامياً، "وليست فلسفةً تجميعيّةً، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص" فهي بحقّ مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس. وبملاحظة حياة صدر المتألّهيّن بمراحلها الثلاث، يُمكن استنتاج ركائز الفلسفة النيّ شيّدها، والأسُس التي اعتمد عليها. فهو فيلسوف إسلاميّ قرأ كلّ ما تقدّم عليه من أفكارٍ وفلسفاتٍ، وطاقته نفسه لحياة العزلة والتصوّف، لكنّه خرج من عزلته منتصراً، يحمل فلسفةً جديدةً، لم يكن ليوفّق إليها من قبله، فكانت فلسفته مزيجاً من البرهان والوجدان والقرآن، أو قلّ مزيجاً من العقل والكشف والشرع.

#### 1- الجمع بين البرهان والوجدان:

أولاً: إنّ الحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، فنجد صدراً يُشَنّع على من ينكر العلم اللّديّ، بينما هو يعتبره أقوى وأشدّ فيقول: "إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبيّ اللّديّ، الذي يعتمد عليه السّلاّك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين ما معنى العلم إلّا الذي يحصل من تعلّم أو فكر ورويّة".

ويذمّ المعتمدين على البحث والعقل فقط فيقول: "...لا على مجرد الأنظار البحثية، التي سيلعب بالمعوليين عليها والمعتمدين بها الشكوك، يلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها ويتوافقوا فيها، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها".

فأولى "أن يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء، والمليين من العرفاء".

يمكن القول: "إنّ فلسفة صدر المتألهين تُشبه المدرسة الإشراقية من ناحية الأسلوب، أي إنّها تعتمد كلاً من الاستدلال والمكاشفة، إلّا أنّها تختلف عنها في الأسس والاستنتاجات".

ثانياً: يقدم البحث الفلسفيّ على الشهود الوجدانيّ، شفقةً بالمتعلّمين، وتسهيلاً عليهم، لأنّ الطالب قد لا يقتنع بالمشاهدة ولا يُصدّق بها ابتداءً، لكنّه إذا وجد الدليل البحثيّ العقليّ واقتنع به، ثمّ سمع بالمشاهدة والكشف أمكنه التصديق أكثر: "ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكننا أولاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثمّ نفرق عنهم في الغايات، لنلّا تنبؤ الطبائع عمّا نحن بصده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم".

## 2- المطابقة بين الشرع والعقل:

وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج، فلم يقع فيما وقع به المشاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل، ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقلية بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفية الحكمية التي طرحها مطابقة بين العقل والشرع: "وحاشا الشريعة الحقّة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب

والسنة"<sup>2</sup>. وعلى هذا لا يزال يستشهد على كل مسألة فلسفية عويصة بالآيات القرآنية والآثار الإسلامية. وهو بارع في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته. ولم يكن استشهاده بها لرفع شبهة المتهمين له بالخروج عن الدين، بل هو من الذين يدعون أنه لا أحد يفهم أسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة كما يفهمها هو. و يسعى في كل ما ألفه إلى أن يُبين هذا المنهج الفريد، فيهدف من كتبه الفلسفية إلى بيان تأييد العقل للدين، ومن كتبه الدينية بيان تأييد الدين للعقل، فكانت كتبه كلها دينية فلسفية.

### 3- محورية القرآن:

وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الفريد الذي يتبعه الملاء صدرًا، أن البرهان والعرفان والقرآن في عرض واحد، وأنها طرق ثلاث توصل إلى الحقيقة وتكشف عنها، وأنه لا تقدم لبعضها على الآخر، إلا بالأسلوب التأليفي والكتابي لإقناع الطلاب، ولكن الصحيح أن المحورية الأساس للقرآن في مدرسته: "إن الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلة، البرهان والعرفان والقرآن، وأنه لا يوجد أي اختلاف بينها، وإنما هي توافق وانسجام تام، نعم في مقام المقايسة الداخلية بين هذه الطرق الثلاث، فإن المحورية والأصالة هي للقرآن، والآخران يدوران حوله، لا ينفكان عنه".

### خامساً: حدود العقل:

ومن الضروري جداً وضوح مكانة العقل في هذه المدرسة. فقد يتصور أن الحقائق، التي كشفت الحكمة المتعالية اللثام عنها، يتوصل إليها بالطرق الثلاث المتقدمة، وأن ما يصل إليه الكشف والشهود، وما يحكي ويخبر عنه القرآن والسنة، يمكن للعقل والبرهان أن يصل إليه، ويستدل عليه. وقد يتصور أنه يوجد تناف بين القرآن والوجدان من جهة، والبرهان من جهة ثانية، حيث إن هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقع فيما بينها.

لكن الحقّ غير هذا، فإنّ هذه الطرق ليست في عرض بعضها البعض حتّى يقع التنافي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان، يقول صدر المتألّهيّن: "ثمّ إنّ بعض أسرار الدّين وأطوار الشرع المبين بلغ إلى حدّ ما هو خارجٌ عن طور العقل الفكريّ، وإنّما يُعرف بطور الولاية والنبوّة، ونسبة طور العقل ونوره إلى طور الولاية ونورها، كنسبة نور الحسن إلى نور الفكر، فليس لميزان الفكر كثير فائدةٍ وتصرفٍ هناك".

وقال أيضاً: "إنّ مقتضى البرهان الصحيح ممّا ليس إنكاره في جِبَلّة العقل السليم من الأمراض والأسقام الباطنة. نعم ربما يكون بعض المراتب الكماليّة ممّا يقصر عن غورها العقول السليمة، لغاية شرفها وعلوّها عن إدراك العقول، لاستيطانها في هذه الدار وعدم مهاجرتها إلى عالم الأسرار، لا أنّ شيئاً من المطالب الحقّة ممّا يقدر فيها ويحكم بفسادها العقل السليم والذهن المستقيم".

وينقل عن الغزالي فيقول: "قال الشيخ الفاضل الغزالي: اعلم أنّه لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالاته. نعم يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنّه لا يدرك بمجرد العقل. ومن لم يُفرّق بين ما يُحيله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخسّ من أن يُخاطب فيترك وجهله".

سادساً: تقويم هذه المدرسة:

لقد استطاع "صدر المتألهين أن يجمع بين الفلسفة والعرفان، واستفاد في ذلك بالسنة والقرآن، وبين المعارف الذوقية في صورة الدليل والبرهان، فتولّد بهذا الترتيب بين مناهج المعرفة منهجٌ حديثٌ، وسُمّي بالحكمة المتعالية" و"استطاع أن يُحقّق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفية، أدّت إلى بناء نظامٍ عقليٍّ جديدٍ قائمٍ على أسسٍ برهانيةٍ يُمكنها تفسير العالم الإمكانى وعلاقته بمبدئه المتعالي"

وقد حَسَمت هذه المدرسة النزاع بين الفلسفة المشائية والإشراقية، ولم يعد معنى للصراع بين أرسطو وأفلاطون في هذه المدرسة، حيث وضعت كلّ مسألةٍ في مكانها، واستفادت من المناهج المعرفية كلّها.

سابعاً: المفاهيم الرئيسة:

1- إنّ الفكر الفلسفيّ السائد هذه الآونة، لا سيّما في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وخصوصاً في الحوزات العلميّة، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمها وأسّس قواعدها صدرُ الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألّمين.

2- يُمكن تقسيم حياة صدر المتألّمين العلميّة إلى ثلاث مراحل:

أ- التلمذة: حيث كان يتتبّع آراء المتكلّمين والحكماء ومناقشاتهم.

ب- العزلة: فقد انقطع عن الناس إلى إحدى قرى قم المقدّسة خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال.

ج- التألّيف: حيث صنّف في هذه المرحلة الجديدة من حياته أنفس ما قدّمه للفلسفة الإسلاميّة.

3- يُعدّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجاً مختلفاً عن كلّ المدارس السابقة عليه. فهو ليس منهجاً مشأئياً بحثاً، ولا إشراقياً بحثاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً، بل هي مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس.

4- قد تميّزت هذه المدرسة عن غيرها من المدارس بأنّها:

أ- تجمع بين البرهان والوجدان: فالحكمة المتعالية تتّخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، لكن لا بنحو الفلسفة المشأئية تنكر على الشهود كلّ النكير، ولا كالصوفيّة يعترضون ويسقّهون العقل أيّ تسفيهه، بل هي تُحارب من يعتمد على الشهود والكشف فقط، كما وتندّم من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

ب- تطابق بين الشرع والعقل: وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج. فنلاحظ في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع. ولهذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألة فلسفيّة عويصة بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة.



### \*\*\* الآراء الكلامية \*\*\*

تمهيد:

في هذا المبحث سنتكلم في بعض المسائل، التي أختلف حولها المتكلمين من المسلمين، والفلاسفة، وذلك لجملة من الأسباب سيتضح لنا فيما يأتي، وهي كالآتي:

**المطلب الأول: وجود الله:** شغلت مسألة وجود الله تعالى الفكر الإنساني قديماً، وحديثاً فتمخض عن ذلك إيمان بعض الناس، وأنكار البعض الآخر، ففلاسفة اليونان على ثلاثة مذاهب في هذا الحقل وهي كالآتي:

1. **الدهريون:** هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العام القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً، كذلك بنفسه، وبلا صانع. وهؤلاء هم الزنادقة من قدماء اليونان، الذين قالوا بأن العالم قديم، وليس حادثاً، فقدم العالم ينفي وجود الخالق. وسيتبين لنا ذلك في مطلب النبوة لأنهم أنكرو ذلك ايضاً
2. **الطبيعيون:** وهم الذين أكثروا بحثهم في علم الطبيعة، وعجائبها، هؤلاء اضطروا الى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور، ومقاصدها. إلا أنهم ذهبوا إلى أن النفس تموت، ولا تعود فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، وسيتبين لنا ذلك في مطلب المعاد.

3. **الإلهيون:** وهم المتأخرون، منهم سقراط، وأفلاطون، وأرسطو.

أما المتكلمون استدلووا بمجموعه من الأدلة وهي بما تعرف بأدلة وجود الله تعالى:

**أولاً: دليل الحدوث:** ولقد بنى المتكلمون هذا الدليل على مقدمتين:

**المقدمة الأولى: العالم حادث، المقدمة الثانية:** كل حادث لبد له من محدث.

**النتيجة: العالم لا بد له من محدث يحدثه أي يرجح وجود على عدمه، وهو الله سبحانه وتعالى.**

الدليل على أن كل حادث لابد له من محدث: هو أنه لو حدث حادث بلا محدث، للزم أن يترجح وجوده على عدمه، بلا مرجح، وهو مستحيل بالبداهة.

ثانياً: دليل الوجوب: "موجود هذا الكون إما يكون: واجباً، أو مستحيلاً، أو ممكناً".

1. لايجوز أن يكون موجود العالم مستحيلاً: لأن المستحيل لايتصور، وجوده مطلقاً فهو عدم محض، وبذلك لايمكن أن يوجد العالم.
2. لايجوز أن يكون موجود العالم ممكناً: لأن الممكن لا يوجد إلا إذا وجد سبب وجوده، وذلك السبب يحتاج الى سبب آخر...، وهذا يلزم بطبيعته الدور وهو: أن يكون شيئاً كل واحد منهما علة لآخر. ، والتسلسل: هو أن يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه، وتستند تلك العلة إلى علة أخرى الى ما لا نهاية. وكلاهما باطل.

ثالثاً: دليل العناية، والاختراع: ويعتبر من أجل الأدلة على وجود الله تعالى وأوضحها، وقد ذكره ابن رشد بهذه التسمية في مناهج الأدلة. ويقتصر هذا الدليل على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على الحس، ثم يزيدون عليها البراهين.

1. دليل العناية: يظهر في العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله. وأن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان، وأن هذه الموافقة، هي ضرورة من قبل فاعل، قاصد لذلك.
2. دليل الاختراع: وهو ما يظهر اختراع جواهر الأشياء الموجودات. وهذه الجواهر مخترعة، من قبل مخترع، ولمن أرد معرفة الله حق معرفته عليه أن يدرك جواهر هذه الأشياء.
3. الدليل على الدليلين: قال تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض

فراشاً والسماء بناءً وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات  
رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون {البقرة: 20-21.

فقوله: "خلقكم، والذين من قبلكم" تنبيه على الاختراع.  
وقوله: "الذي جعلكم الأرض فراشاً والسماء بناءً" تنبيه على العناية.

رابعاً: الدليل الوجودي: ويسمى برهان الاستعلاء، والاستكمال، أو برهان المثل  
الأعلى، وقد صاغه القديس أنسلم في صورته الأولى، وهو "أن فكرة الإله موجودة في  
العقول، فالملمحدون لا يجحدون تصورهم للألوهية، وإنما يجحدون وجود الإله. وبلغ  
كمال هذا الدليل فلسفة ديكارت.

خامساً: الدليل الأخلاقي: وقد صاغ هذا الدليل الفيلسوف الألماني كانت، أن علامة  
الوازع الأخلاقي لا توجد في النفس الإنسانية بغير وجود إله، إذ لا يدين الإنسان نفسه  
بالحق مالم يكن هناك قسطاساً للحق يغرس في نفسه هذا الوجود.

المطلب الثاني: صفات الله تعالى:

أولاً: قسم بعض علماء الكلام الصفات الإلهية إلى ثلاثة أقسام:

1. الصفة النفسية: وهي الوجود، وهي صفة تدل على نفس الذات دون  
معنى زائد عليها.

2. الصفات السلبية: وهي خمس: القدم، البقاء، مخالفة الحوادث،  
القيام بالنفس، والوحدانية. والمراد بكونها سلبية: أي أن كل واحدة  
سلبت (نفت) أمراً لا يليق به تعالى. فالقدم سلب لأولية الوجود، و...  
الخ.

3. صفات المعاني: وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع،  
والبصر، والكلام. واختلفوا في صفة التكوين، في بيان محله.

ثانياً: النصوص الموهمة للمشابهة: وردت في القرآن الكريم، والسنة النبوية نصوص تضيف الى الباري صفات خبرية توهم التشبيه، فاختلفوا فيها على ثلاثة أقوال: مع اتفاقهم على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به وهي:

1. التوقف: أي التوقف الكامل من غير جنوح الى تأويل أو سقوط في التشبيه وهو مذهب السلف، لذا قال أكثرهم (أقرؤوها كما جاءت) أي آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها، لأن التأويل أمر ظني بالاتفاق، ويحتمل الخطأ، وقد فسر الإمام مالك بن أنس "الرحمن على العرش أستوى" قال: الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة.
2. التوغل في التشبيه: فمنهم من شبه في الذات باعتقاد اليد، والقدم، والوجه، فوقعوا في التجسيم، الصريح، وهؤلاء فرق عديدة مثل أصحاب الحديث الحشوية، ومشبهة الشيعة.
3. التأويل: وهو ما ذهب إليه المعتزلة وأخذ به - مع تعديلات طفيفة - الشيعة والاشاعرة والمتزنية: وذلك لأن ثبت عندهم بالدليل العقلي أن الله تعالى منزّه عن الجسمية، والجهة، ولاسبيل للقضاء على التشبيه، إلا إذا أولت الصفات الخبرية الواردة بالنصوص، وحين رأى العلماء أن فتح باب التأويل له أضرار جسيمة وضعوا له قواعد.

ثالثاً: سبب ظهور المشكلة: اختلف الباحثون في سبب ظهور مشكلة الصفات الإلهية على قولين:

القول الأول: ظهرت بتأثير أجنبي خارجي، ولكنهم اختلفوا في هذا المصدر على أقوال:

1. علم الكلام المسيحي: وخاصة عن طريق كتابات يوحنا الدمشقي.
2. اليهود: بحجة أن قول المعتزلة (القران مخلوق) مقتبس من قول اليهود التوراة مخلوقة.

3. الفلاسفة: وذلك للصلات الفكرية بين الفلاسفة، والمتكلمين، وخاصة المعتزلة، وبين الفلسفة اليونانية.

القول الثاني: ظهرت كنتيجة حتمية للتطور الفكري داخل الإسلام نفسه، بحجة:

1. إن المشكلة ظهرت نتيجة النقاش الديني، الذي دار في صفوف الخوارج حول مرتكب الكبيرة، الذي جر الى البحث في مشكلة القضاء والقدر، ثم مشكلة الصفات الإلهية.
2. التمسك بحرفية الصفات الخيرية الواردة في القرآن الكريم وحملها على معانيها الحقيقية دون المجاز، الذي تطور من مشكلة لغوية إلى فلسفية بمعناها المصطلح.

رابعاً: تاريخ المشكلة: يقولون أن أول من نفى الصفات الإلهية شخصان هما: الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وقد بنى الجهم فكرته على ركنين هما:

1. لغوي: قال المماثلة هي: الاشتراك في الاسم. وكان يقول لا اصف الباري بوصف يجوز اطلاقه على غيره، ولذا أثبت لله تعالى صفة القدرة، والخلق، والإيجاد فقط لأنه لا يوصف بهذا من الخلق.
2. فلسفي: كان الجهم جبرياً، فنفى القدرة الإنسانية، والاستطاعة، فالإنسان مجبر في أفعاله جميعاً، وجاء المعتزلة فنفوا الصفات الإلهية.